الفصل الخامس

رواد مدرسة القضاء الشرعى

عمل بمدرسة القضاء الشرعى جيل من الأساتذة الرواد والعلماء الأعلام الذين شهدت مصر فى النصف الأول من القرن العشرين قمة نشاطهم وأروع آيات ابداعهم فكانوا بمثابة المرشدين للأمة ، كما كان فكرهم مرآة تعكس طموحها فارتفعوا بمكانة القضاء الشرعى فى مصر حيث اهتموا بتكوين القضاة والمحامين الذين يجمعون بين عمق البحث وحرية الفكر حتى ينهضوا بتحسين أحوال المحاكم الشرعية على وجه يتلاءم مع ظروف العصر ومقتضياته ، وفيما يلى نعرض لاثنين من هؤلاء الرواد لم نتناول حياتهما تفصيلا بل سنقصر الكلام على دورهما الفعال فى المدرسة وأول هؤلاء هو عاطف بركات أول ناظر لهذه المدرسة وصاحب اليد الطولى فى تأسيسها وترقيتها أمورها أما الآخر فهو أحمد أمين أحد خريجى هذه المدرسة الذى سمحت له ظروف نبوغه العلمى بالعمل فى حقل التدريس بها ، وكان له أثر كبير فى تطور الحياة الأدبية والفكرية والثقافية فى مصر بعد ذلك ، ولنبدأ بمحمد عاطف بركات .

١ ــ محمد عاطف بركات

١٨٧٢ ــ ١٩٢٤

محمد عاطف بركات أحد رواد التعليم الحديث فى مصر ، ومن أبرز من عرفتهم وزارة المعارف عقلا وادارة ونزاهة .

وقد تلقى عاطف أساليب الحياة على يد خاله سعد زغلول ودرس فى الأزهر نحو أربع سنوات ثم دخل دار العلوم فى عام ١٨٩٠ وبعد

تخرجه منها اختارته المدرسة كأول مبعوث لها للدراسة فى انجلترا ، وبعد عودته من انجلترا عين مفتشا بالمدارس الأميرية ثم أوكل اليه عملية اصلاح التعليم الأولى فى عام ١٩٠٣ [١] .

ولما أنشئت مدرسة القضاء الشرعى تم اختيار عاطف بركات كأول ناظر لهذه المدرسة ، فقام عليها خير قيام ، وعمل على تأسيسها على أحدث الطرق العلمية ، كما عمل على النهوض بها كلما سنحت له الفرصة ، واصطفى لها من الأساتذة ممن عرفوا بالفضل والصلاح ووفرة العلم وطول الباع فأرسوا دعائمها وسهروا على العناية بها وظل عاطف بركات على نظارة هذه المدرسة أربعة عشر عاما فكان أصلح من تولى هذا المنصب لعشقه للعمل الذى أسند اليه لدرجة أنه كان يعطيه كل وقته وتفكيره لاعتقاده أن أساس الادارة فى أى مجال هو مصلحة العمل الموكل اليه لا مصلحة شخصه ونتيجة لذلك أشاع فى هذه المدرسة من روحه فكان يخجل العاملين فيها بجده ونشاطه فيقلدونه فى نشاطه ونظامه [٢] ومما يذكر عنه انتهازه لكل فرصة يستطيع فيها الالتقاء بطلاب المدرسة وأساتذتها ليتحاور معهم ويثير فيهم التفكير فى مسألة علمية معينة ويناقشهم فيها مثلما كان يفعل سقراط مع تلاميذه ، فكان يتحين فرصة الفسحة أو فرصة وجود الطلبة فى المكتبة أو فى حجرة المدرسين أو فى المطعم فيقف ويلتف حوله هاشاء من الطلبة ، فيثير مسألة من المسائل العلمية ويحاورهم فيها ويحاورونه ، ويتشعب الموضوع ويتلقى الرد عليها من المدرسين أو الطلبة ، ويدفع الحجة بالحجة ويطول الجدل بينهم حتى يدق الجرس ، ليكون ذلك درسا على طريقة سقراط [٣] ولتكون المسألة

---

(١) محمد عبد الجواد : المرجع السابق ص ٢٧٦ — ٢٧٨ تحت عنوان « محمد عاطف بركات باشا » .

(٢) احمد امين : فيض الخاطر حـ ١٠ ص ١١٣ .

(٣) احمد امين : حياتى ص ١٢٣ .

حديث المدرسة فى الفصول وأوقات الفسح ، وقد تستمر أياما والعقول متيقظة باحثة فاحصة فاذا انتهت أثيرت غيرها وهكذا فكان ذلك مثار نشاط ذهنى ومدعاة لتحرير الأفكار ، وساعد على ذلك أن عاطف بركات كان واسع الأفق له غرام بالبحث يقرأ فى رفق وهوادة ويصبر على الجدل ، ويأبى الا تحكيم العقل والبحث فلا يقبل عقله الفكرة الا اذا كانت واضحة ولا يعبر عنها الا اذا كانت ناضجة ، كما كان صريحا فى غير تحرج صادقاً فى قوله ، مشتدا فى العدل ولو على نفسه ملتزما بالنظام ولو ضايق نفسه وضايق من حوله يضاف الى ذلك أنه كان طويل النفس فى الجدال قوى الحجة لا يكل ولا يمل [٤] ينفث فى طلابه روح الكرامة والاعتزاز بالنفس كما ينفث فيهم حب الاطلاع والتخلق بالأخلاق الكريمة والرغبة الصادقة فى تحصيل العلوم على اختلافها [٥] ومما يذكر عنه أنه كان يفاجىء المدرسين فى فصولهم أثناء الدرس ، ويستمع اليهم وذات مرة وجد الشيخ حسن منصور أحد أساتذة المدرسة يدرس علم الأخلاق لطلابه من كتاب « أدب الدنيا والدين » للماوردى والذى لايتسق فى رأيه مع المناهج الحديثة لعلم الأخلاق [٦] فتولى بنفسه تدريس هذه المادة مستعينا بكتاب ماكنزى فى علم الأخلاق أحيانا ، وبكتاب مذهب المنفعة لجون ستيوارت مل أحياناً أخرى [٧] واتبع فى تدريسه طريقة أن يبتدع فى المادة وفى الأسلوب معا .

ونتيجة لما حققته المدرسة من نجاح فى عهده فكر عاطف بركات فى أن تصبح مدرسة دار العلوم قسما من مدرسة القضاء

---

(٤) أحمد أمين : المرجع السابق ص ١٥ ، ١٣٨ .

(٥) محمد عبد الجواد : المرجع السابق ص ٢٧٦ .

(٦) انظر : ابى الحسن الماوردى : كتاب ادب الدنيا والدين ، القاهرة — وزارة المعارف العمومية ١٩٢٥ .

(٧) أحمد أمين : المرجع السابق ص ١٢٢ .

الشرعى حتى يجعلها كلية للعلوم الدينيـــة والعربيـــة على أن تأسس مدرسة تجهيزية مكان دار العلوم تمد الـــكلية المقترحـــة بالطـــلاب ، وتهيئهم للدخول فيهـــا ، ولـــكن هـــذه الفكرة لم يقيض لها النجـــاح خصوصا بعد خروج سعد زغلول من نظارة المعارف (٨) .

وسارت مدرسة القضـــاء الشرعى قدما تجتـــاز ماكان يوضع فى سبيلها من عقبـــات ، يديرها عاطف بركات بقوة وحذق كالربان الماهر الذى يسعى دائما الى أن يجنب سفينته العواصف . وكان طلبة المدرسة وأساتذتها وزائروها يلمسون فيه الدقة وتحرى النظام والعمل المتواصل والجدية ، وقد بدا ذلك واضحا عندما زار السلطان حسين كامل المدرسة فى العاشر من فبراير ١٩١٥ عقب توليه سلطنة مصر اذ أبدى اعجـــابه بنظامها وحسن سير الأمور فيها (٩) .

وتقـــديرا لجهود عاطف بركات أنعم عليـــه السلطان حسين كامل بالبكوية من الدرجة الأولى (١٠) كما أمر بتخصيص جائزتين من خزينته الخاصة الأولى قـــدرها ستون جنيها والثانية قدرها أربعون جنيهـــا للأول والثانى من الناجحين من طلبة هذه المدرسة (١١) .

وهكذا كانت ادارة عاطف بركات لمدرسة القضاء التى كانت فى عهده مربى تنبت فيـــه الأخلاق الفاضلة ، وزهرة المدارس أوجد فيهـــا النظام والعدل ، وحرية التفكير يستنشق منه كل أستاذ وكل طالب على حسب استعداد رئته .

---

(٨) محمد عبد الجواد : المرجع السابق ص ٢٧١ .

(٩) المقتطف : العدد السابق ص ٢٠٩ .

(١٠) محمد عبد الجواد : المرجع السابق ص ٢٧٨ .

(١١) المقتطف : العدد السابق ص ٢١٦ .

٢ — أحمد أمين ابراهيم الطبـــاخ

١٨٨٦ — ١٩٥٤

ولد أحمد أمين بحى الخليفة بالقاهرة فى أكتوبر ١٨٨٦ [١٢] وبعد أن تلقى تعليمه الأولى التحق بالأزهر ، ولـــكن لم يستطب له المقـــام فيـــه لذلك فعندما افتتحت مدرسة القضـــاء الشرعى التحق بها وبعد أربع سنوات قضاها هنـــاك تخرج منها ليعين معيدا نتيجة لحصـــوله على أعلى الدرجات فى دروسه ، ولمـــا عرف عنه من الجد والمثـــابرة والعقل الجاد المحب للاطلاع والتقبل للمعرفة [١٣] .

وقد اختاره عاطف بركات ناظر المـــدرسة معيدا فى تدريس علم الأخلاق فـــكان يلقى الـــدروس على الطلبـــة مستفيدا بخبرات وعلم أستاذه الذى تأثر به ليس فقط فى نزعته العقلية واخضـــاعه كل شىء لسلطان العقل فحسب بل أخذ عنه العديد من صفاته كالمطابقة بين القول والعمل وايثار الحق فى كل الظروف [١٤] .

وعن تأثر أحمد أمين بأستاذه من ناحية تحكيم العقل فى الـــدين يذكر « كنت أحكم العواطف لا العقل ولا أسمح لنفسى بالجدل العقلى فى مثل هـــذه الموضوعات فالدين فوق العقـــل فان جاء فيـــه مافوق العقل آمنـــا به ، لأن علم الله فـــوق علمنـــا ، والله أعلم بما يصلحنا

---

(١٢) ورد فى قاموس الأعلام للزركلى انه ولد فى عام ١٨٧٨ ، ولكننا فضلنا الأخذ بما ورد فى الترجمة التى كتبها مجمع اللغة العربية عنه خصوصا وانه عمل به لفترة ليست بالقصيرة .
للمقارنة انظر : خير الدين الزركلى : الأعلام حـ ١ ، بيروت — دار العلم للملايين المجلد الأول ص ١٠١ ، ومحمد مهدى علام : مجمع اللغـــة العربية فى ثلاثين عاما . المجمعيون : القاهرة ١٩٦٦ ص ٢٣ .

(١٣) د. محمد مهدى علام : المرجع السابق ص ٢٣ .

(١٤) عامر العقاد : المرجع السابق ص ٣٩ .

ويغيرنا » [١٥] ونظرا لأن عاطف بركات كان يأبى الا تحكيم العقل والبحث عما لانفهم حتى نفهم فقد تأثر به أحمد أمين وسار على دربه ونتيجة لقدرة أحمد أمين العلمية عين مدرسا لمادة الأخلاق بالمدرسة ، وأثمر تدريسه لهذه المادة على تأليفه لكتاب الأخلاق، كما أثمرت جهوده فى تعلم الانجليزية على ترجمة كتاب مبادىء الفلسفة لرابوبورت [١٦] .

وأثناء تواجد أحمد أمين بمدرسة القضاء كان كثير التردد على الجامعة المصرية ليستمع الى دروس بعض المستشرقين ، ومن خلال استعداده للتعلم عرف بمنهج البحث الحديث من خلال اتصاله المباشر بالفكر الأوربى ، وازدياده تبصرا به مما أتاح للاتجاه العقلى عنده قدرا كبيرا من التجديد فى مجال البحث العلمى واستمر أحمد أمين يعمل مدرسا فى مدرسة القضاء ثم تنقل منها للعمل فى عدد من المحاكم الشرعية فى الواحات الخارجة وأسيوط ولم يلبث أن عاد للتدريس بالمدرسة ، وظل بها حتى عام ١٩٢١ [١٧] وبعدها عين قاضيا لمدة أربع سنوات بين قويسنا وطوخ والأزبكية حتى طلب منه الدكتور طه حسين فى عام ١٩٢٦ أن ينتقل الى جانبه للعمل فى كلية الآداب فقبل، وبهذا الانتقال يدخل أحمد أمين فى طور جديد توسعت فيه مداركه ومعارفه حتى أصبح أحد عمالقة جيل الرواد الذين شهدتهم مصر فى النصف الأول من القرن العشرين فقد أفنى ذاته فى خدمة العلم والوطن وقدم أروع آيات انتاجه .

---

(١٥) احمد امين : المرجع السابق ص ١٥ .

(١٦) حمدى السكوت ومارسدن جونز : اعلام الأدب المعاصر فى مصر — احمد امين ، القاهرة — مركز الدراسات العربية بالجامعة الأمريكية ص ٣٦ .

(١٧) عامر العقاد : المرجع السابق ص ٣٩ .